[شرح الأربعين النووية– الشريط الرابع]

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين وأصلي وأسلم على من بعث رحمة للعالمين، وعلى آله وأصحابه ومن اهتدى بهديه واستن بسنته إلى يوم الدين ، أما بعد:

فقد وصلنا في شرح الحديث الثاني إلى قول جبريل عليه السلام (يامحمد أخبرني عن الإسلام)

[الإنشاء والخبر، وأقسام الخبر]

معنى قوله (أخبرني) أي علمني ما حقيقة الإسلام، فالإخبار معناه إبلاغ الإنسان بالخبر،والخبر هو: ما يقبل الصدق والكذب ، من الكلام ، فالكلام في الأصل كله ينقسم إلى قسمين،إلى إنشاء وخبر، فالإنشاء هو : إيقاع معنى بلفظ يقارنه في الوجود ، أي أن ينشئ الإنسان معنى سواء كان ذلك عقدا من العقود كالبيع والنكاح والإجارة، أو كان فراقا كالطلاق والعتق، أو كان يمينا أو استفهاما، أو غير ذلك فهذا هو الإنشاء، وهو لا يقبل التصديق ولا التكذيب، فهو إنشاء ينشؤه الإنسان من نفسه

أما القسم الثاني فهو الخبر ، وهو التحديث عن أمر قد حصل أو حصلت مقدماته لِيُخبر بوقوعه في المستقبل،وهذا الخبر ينقسم إلى قسمين، إلى فائدة الإخبار ولازم فائدة الإخبار

ففائدة الإخبار هي : إخبار الإنسان بما تريد تحصيل علم لديه ، إخباره بأمر لم يكن يعرفه ، كما تقول: مات فلان أو جاء فلان أو حضر فلان ، لتعلم إنسانا بأمر لم يكن يعلم به ،فهذا يسمى فائدة الإخبار

والقسم الثاني يسمى :لازم فائدة الإخبار، وهو أن تُخبره بأمر يعلمه ليدل ذلك على أنك أنت تعلم به، كقولك : رأيتك البارحة في دورة ،فأنت لا تخبرني بأمر تريد أن تفيدني به، وإنما تخبرني على أنك أنت مطلع على ما علمته أنا، فهذا النوع يسمى لازم فائدة الإخبار

وأخبرت فلانا عن كذا تشمل كل حديث عنه مما يقبل التصديق والتكذيب، ولكنها بحسب القرائن تنصرف إلى التحديث عن حقيقته

[أقسام التحديث عن الشيء]

فالتحديث عن الشيء ينقسم إلى قسمين،إلى تحديث عن حقيقته وتحديث عن عوارضه، فالتحديث عن حقيقته مثل ما ذهب إليه النبي صلى الله عليه وسلم هنا عندما سأله عن الإسلام قال(أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ...)إلى آخر الأركان، فهذه حقيقة الإسلام

والحديث عن عوارضه كما لو أجابه بفضل الإسلام وما يحصل من الأجر لصاحبه، أو أن مصير صاحبه إلى الجنة ، فهذا من عوارضه لا من حقيقته ، لأنه خارج عن أصل الماهية، وكل ذلك يشمله،الإخبار

ولكن النبي صلى الله عليه وسلم عدل بالجواب إلى ما هو أولى بالسائل وهو السؤال عن حقيقة الإسلام لأنه لم يقل هنا ، يا محمد أخبرني ما الإسلام إنما قال أخبرني عن الإسلام، فأي خبر عن الإسلام سواء تعلق بذاته أو بعوارضه ، فإنه يكون مستجيبا به للطلب، ولكنه عدل إلى ما هو أولى فحدثه عن حقيقة الإسلام

[معنى الإسلام وحقيقة المسلم]

والإسلام في اللغة: مصدر أسلم وجهه لله ، أي استسلم في أمره كله لله ، وهو في الواقع قرار يتخذه الإنسان من قرارة نفسه بالاطمئنان بهذا الدين والرضا بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد صلى الله عليه

وسلم نبيا ورسولا وبالقرآن إماما ، فمن اتخذ هذا القرار من تلقاء نفسه فهو المسلم

ومن لم يتخذه وإنما قال ذلك مجاملة للناس، فوجد أهل بيته وأقاربه يفعلون أفعالا ففعلها ، ووجدهم يجتنبون أشياء فتركها ، ولكن لم يتخذ هو القرار من نفسه، فهذا هو المرتاب الذي يقول عند سؤال الملكين (هاهٍ هاه لا أدري كنت قد سمعت الناس يقولون شيئا فقلته) أما الذي اتخذ القرار من تلقاء نفسه ،فأيقن بذلك وجزم به ،فهذا هو المسلم

ولذلك فإن النبي صلى الله عليه وسلم أجابه في بيان حقيقة الإسلام بمصدر مؤول من (أن) وصِلتها ، قال (أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان ، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا)

ف(أن) هنا وصلتها أي الجملة التي بعدها يؤولان بالمصدر ، وهذا المصدر مضاف إلى الفاعل ،وهو فاعل الفعل هنا أن تشهد أي أنت فهو قرار شخصي يتخذه الإنسان من تلقاء نفسه فلذلك نسب الفاعل إليه، (أن تشهد أن لا اله إلا الله)

[الحديث عن حقيقة الإسلام وأركانه]

وهذا الإسلام درجات ومراتب، ولذلك فإن النبي صلى الله عليه وسلم إنما تكلم عن حقيقته وأركانه التي لا يمكن أن يتصور إلا بها وهذه الأركان المذكورة هنا هي الأركان الفعلية للإسلام وثمّ أركان تركية للإسلام وهي ما يقابل هذه الأفعال

فكل حقيقة لها إيجاب وسلب فإيجابها هو الأركان الفعلية الواقعية كأركان الإسلام هنا ، وأركانها السلبية أي التركية ، مثل ترك الشرك وترك شرب الخمر وترك الزنا ، وترك السرقة وترك قتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، فهذه معلومات من الدين بالضرورة ، فلا يكون الانسان مسلما إلا إذا كان يعلم أنها حرام ، ولو وقع في بعضها، لكن يقع فيه وهو يعلم أنها حرام، فالمنكر لحرمتها أو الشاك في

حرمتها أو المرتاب في شيء منها لم يسلم بعد ، فلذلك هي أركان كالأركان الفعلية ، والنبي صلى الله عليه وسلم لم يذكرها عنا ن واقتصر على الأركان الفعلية الواقعية لأن ما عداها إنما هو سلب وتروك ، والأصل السلامة منها كما سبق، فإن الأصل أن لا يقتل الانسان وأن لا يشرب الخمر وأن لا يزني وأن لا يسرق ، فهو في الأصل سالم من ذلك لكن الأصل أيضا أن لا يشهد أن لا اله إلا الله وأن لا يصلي وان لا يصوم وأن لا يزكي وأن لا يحج ، فلذلك ذكر ما يحتاج الإنسان إلى إحداثه ، من الأمور التي الأصل عدمها ، وهي الأركان الفعلية ، ولم يذكر الأركان السلبية هنا

[مسملة الاختيار والاضطرار والدار]

فقال (أن تشهد أن لا إله إلا الله) وهذا الإسلام الذي هو قرار كما ذكرنا ، يفرّق فيه بين مسملة الاختيار ومسلمة الاضطرار ومسلمة الدار ،فإذن ثلاثة أقسام

مسلمة الاختيار وهم الذين اختاروا الإسلام ورضوا به، واقتنعوا به، من تلقاء أنفسهم من غير إكراه ، ومن غير محاباة للناس ، فهؤلاء هم المسلمون حقا ، والقسم الثاني مسملة الاضطرار ، وهم الذين أسلموا تحت ظلال السيوف، فكانوا من المؤلفة قلوبهم، فكثير من الناس يدخل الجنة وهم يجرون بالسلاسل، لأنهم دخلوا الإسلام كرها ثم بعد ذلك استجابوا وأطاعوا، والمقصود بالإكراه هنا ليس الإكراه على الاعتقاد والجانب العقدي، ولكنه الإكراه على الجانب الفعلي،فالإكراه يتعلق بالجانب الفعلي لأن النبي صلى الله عليه وسلم قال(أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأني رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام وحسابهم على الله) وما ذكره رسول الله صلى الله عليه وسلم هنا ، يتعلق بالأفعال لا بالاعتقادات ، فالاعتقادات لا ينفع الإكراه معها ، فمن دخل في الإسلام كرها وهو غير معتقد له ، فنطق بالشهادتين من غير اعتقاد، لا ينفعه ذلك في الآخرة لقول الله تعالى {لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ}[البقرة–256]

[هل آية (لا إكراه في الدين) منسوخة]

وهذه الآية قد اختلفوا فيها هل هي محكمة أو منسوخة ، فقد ذهب بعض أهل العلم إلى أنها نسختها آية السيف لأن الله تعالى يقول{فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ }[التوبة-5]

وذهب آخرون إلى أنها محكمة غير منسوخة ،وهذا الذي عليه كثير من أهل التفسير

ووجه ذلك أن المقصود بالإكراه المنفي هو إكراه القلب والاعتقاد، وأما الإكراه المثبت في آية السيف فهو إكراه العمل الظاهر، فالعمل الظاهر يكره عليه الإنسان ، كمن امتنع من أداء الزكاة تنتزع منه بالغصب ومن امتنع من أداء الصلاة يؤخر إلى أن تبقى ركعة بسجدتيها من الضروري ويقتل بالسيف

ومن امتنع كذلك عن الصوم منع الأكل والشرب ، طيلة نهار رمضان ، ويحبس حتى يتوب أو يموت، وهكذا في بقية الأركان

ولذلك فمن ارتد عن الإسلام فإن حده القتل، بعد أن يستتاب فإن تاب ترك وإن لم يتب قتل ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم (من بدل دينه فاقتلوه)

فلذلك الراجح أن الآية محكمة، وأنها في الإكراه القلبي ، وأما الإكراه البدني فهو في آية السيف وفي حديث ابن عمر هذا (أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله)

وهذا ما يلتبس على كثير من الناس فتسمعون بعض الدعاة وبعض العلماء ينفون الإكراه في الإسلام مطلقا ، وحينئذ لابد أن يتناقضوا مع الأمور الواقعية كإسلام أبي سفيان يوم فتح مكة، وإسلام صفوان ابن أمية ، وإسلام عكرمة وغيرهم

[الطاعة تصادر الأفعال ولا تصادر الآراء]

وتجدون بعض الناس يثبت ذلك مطلقا، فيقعون أيضا في التناقض مع قول الله تعالى {لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ}[البقرة–256]، والجمع هو ما بيناه أن الإكراه لا يتعلق بعمل القلب ، وإنما يتعلق بعمل الجوارح فقط، ولذلك فإن من قواعد الدعوة ، أن الطاعة تصادر الأفعال ولا تصادر الآراء ، فالجماعة تصادر العمل ولا تصادر الرأي ، فرأي الإنسان له الحق أن يتمسك به، ولكن عمله يمكنه أن يأتيه أمر بخلاف رأيه، كما أمر النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه يوم الحديبية أن يتحللوا وأن ينحروا الهدي ويحلقوا رؤوسهم وهم كارهون لذلك، حتى إن عمر قال (يا رسول الله، كيف نعطي الدنية في ديننا ألسنا على الحق وهم على الباطل، وشهداؤنا في الجنة وقتلاهم في النار فسكت عنه النبي صلى الله عليه وسلم ، فأتى أبو بكر فأعاد عليه الكلام فقال (ألست تشهد أنه رسول الله؟) قال بلى قال (فالزم غرزه)

ولذلك فإن النبي صلى الله لعيه وسلم هنا صادر العمل ولم يصدرهم الرأي ، فلم يناقشهم في رأيهم ، ولم يناقش عمر حين قال له هذا الكلام، وبهذا يعلم أن الجماعة تصادر العمل ولا تصادر الرأي

[مسملة الدار]

وهذا الإسلام كما ذكرنا منه أيضا نوع ثالث وهو :مسلمة الدار، أي الذين اسلموا تقليدا فعاشوا بين آبائهم وأمهاتهم فرأوهم وسمعوهم يأمرون بأشياء وينهون عن أشياء وأطاعوهم في ذلك تقليدا لهم ومحاذاة لهم، وهذا النوع هو أصل النفاق لأن كثيرا من الذين أسلموا بالدار بين ذوييهم يفعلون كثيرا من الأفعال عن غير قناعة ، ويتركون كثيرا من الأشياء عن غير قناعة ، ولذلك تجدون في تقليدهم يتركون أمورا ما نهى الشرع عنها ، ويفعلون أشياء ما أمر الشارع بها ، وتدخل عندهم في حيز الاعتقاد والطاعة، فيعرفون أنهم كانوا يُضربون وهم صغار إذا فعلوا هذا الفعل فيظنونه من المحرمات والكبائر، ويمارسون أمورا أخرى هي من الكبائر ، وهذا الأمر أعظم عندهم منها ، فهذا النوع من

التقليد والمحاباة للآباء والأمهات، وأصحابه هم مسلمة الدار ، وفرق بينهم وبين مسلمة الاختيار، ومسلمة الاضطرار ، فهذه إذن ثلاثة أقسام

والمسلمة معناه المسلمون الذين هم جمع كما يقال مسلمة الفتح أي العدد الذين اسلموا في وقت واحد أو في تاريخ واحد وواقعة واحدة

[تفاوت الناس في التزامهم بالإسلام]

وهذا الإسلام كذلك التزام الناس به متفاوت فمنهم من يأتي بأصوله وأركانه ، ثم يتعدى ذلك إلى أكارعه وأطرافه حتى يصل إلى ذروة سنامه وهي الجهاد في سبيل الله، ومنهم من يقتصر على أركانه فيكون من عموم المسلمين ، ولكن يبقى عليه كثير من شعب الإيمان ، وهذه الشعب كلها هي داخلة في هذا الدين ، وفي مسماه ، ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (الإسلام بضع وسبعون شعبة بضع وستون شعبة فأعلاها قول لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق) فالجميع من شعب الإيمان، وهذه الشعب يتفاوت إيمان الناس بتفاوت آدائهم لها ، وتتبعهم لها

وسنذكر ما يتعلق بزيادة الإيمان ونقصه إن شاء الله تعالى في الكلام على الإيمان

[يثبت الإسلام للإنسان بمجرد النطق بالشهادتين والأعمال الظاهرة]

لكن هنا بين النبي صلى الله عليه وسلم هذه الأركان ، الخمسة ، فبدأها بالركن الأول وهو قولي أي أصله يرجع إلى اللسان وإن كان لا يعتبر القول دون اعتقاد القلب في الآخرة ، لكن في أمور الدنيا مجرد النطق ينال به الانسان حكم الإسلام ، لأن الله تعالى يقول {فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ}[التوبة–11] {فإن تابوا} والتوبة من الكفر لا تكون إلا بشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله {وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ}[التوبة–11] ، فمن فعل

هذه الأركان الظاهرة كان من المسلمين ، ولو عصى ولو خالف ولو كان اعتقاده فاسدا ، فذلك إلى الدار الآخرة، أما في أحكام الدنيا فإنه تجرى عليه أحكام الدنيا، أحكام الشرع على أنه مسلم

[نحكم بالظواهر والله يتولى السرائر]

ولو نطق بالشهادتين ثم زعم أنه لم يكن يعتقد ذلك وإنما قاله تقليدا أو محاباة ، فإن ذلك لا يقبل منها فإذا شرب الخمر أقيم عليه الحد، وإذا ارتد أقيم عليه حد الردة ،وإذا زنا أقيم عليه الحد، لأنه يخاطب بحسب الظاهر كما قال عمر رضي الله عنه (إن قوما كانوا يؤخذون بالوحي على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم وإن الوحي قد انقطع بالنبوة ، وإنما نحن قوم نحكم بالظواهر والله يتولى السرائر، فمن أبدا لنا صفحة عنقه أخذناه) فالأحكام إنما تجرى على الظاهر فقط ، وبواطنها وسرائرها إلى الله تعالى تبلى يوم تبلى السرائر {يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنكُمْ خَافِيَةٌ}[الحاقة-18]

فلذلك يدخل المصلون لجهة القبلة في عموم المسلمين حتى لو كانت لهم اعتقادات مخرجة من الملة ، فمن كان يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ويصلي الخمس إلى القبلة اعتبرناه في ظاهر الشرع من المسلمين، ويعامل معاملة المسلمين وله، وله من الحقوق ما لهم ، لكن مع ذلك يوالى بقدر ما فيه من ولائه لله ويعادى بقدر ما فيه من عداوته لله ، لأن الولاء والعداء يرجعان إلى قدر الطاعة والاستقامة

فلذلك يعادى من كان مبتدعا أو من كان فاسقا في دينه بقدر ما فيه من نقص الإيمان ، وبقدر ما فيه من عداوته لله ، ويوالى على أساس الشهادتين، ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم لأسامة ابن زيد عندما قتل الرجل بعدما قال (أشهد أن لا اله إلا الله) عائذا بها من السيف ، قال (أقتلته بعد أن قال لا اله إلا الله؟) قال: يا رسول الله ما قالها إلا عائذا بها من السيف ، قال (هلا شققت عن قلبه) فباطن ذلك يوكل إلى الله

[التعليق على كلام الذهبي في بشر المريسي]

ولهذا فإن الذهبي رحمه الله في كتاب سير أعلام النبلاء، لما ذكر ترجمة بشري المريسي وهو من كبار الجهمية ومن قادة بالدعة ، وذكر ما قاله فيه أهل العلم بعضهم كفره وبعضهم بدعه إلى آخر الكلام قال : ولكن أبى الله أن يكون من شهد أن لا اله إلا الله وأن محمدا رسول الله وصلى الخمسة إلى القبلة وزكى وصام وحج البيت كأن لم يفعل شيئا من ذلك ونعوذ بالله من البدعة وأهلها. وهذا الكلام منصف وهو يبين قاعدة جليلة في التعامل مع الناس ، لأنك إن أردت أن تبحث في الناس عن كمال الإيمان وتمامه فهو أندر من الندور، وإذا أردت أن لا يبقى من المسلمين في صميم الإسلام وفي أصله إلا من كان ملتزما بظاهر الشرع، حينئذ سيتساقط عنك جل المسلمين، وهذا ليس من مقاصد الشرع

فلذلك الشرع لم ينط الأحكام إلا بالعلل الظاهرة المنضبطة ، والعلة الظاهرة المنضبطة هي ما بينه الله في قوله {فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ}[التوبة–11] فلذلك إذا شهد إنسان أن لا اله الا الله وان محمدا رسول الله وأقام الخمس إلى القبلة وأقر بهذه الأركان اعتبرناه من المسلمين، وأجرينا عليه أحكامه في الظاهر وعاملناه هذه المعاملة، ولو فسق ولو فعل الطوام والكبائر فذلك أمر يعاقب عليه بحسب القدرة ولا يخرجه من الملة في ظاهر الشرع، وإن كان يوم القيامة قد يكون أشد كفرا من أبي جهل وأبي لهب، لكن ذلك الأمر أخروي ونحن إذا حكمنا للإنسان بالإسلام في الحياة الدنيا، فليس معنى ذلك أننا شهدنا له بالجنة

[من الأدلة على خلود المنافقين في النار]

فكثير هم أولائك الذين يصلون معنا ويصومون ويزكون، وسيضرب بينهم وبين المؤمنين يوم القيامة {بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ (13) يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَى

وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ (14) فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا}[الحديد-13-15] وهذا نص صريح في أنهم لم يكونوا في الدنيا من الذين كفروا لأنه قال {فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ} ، وفي قوله {هِيَ مَوْلَاكُمْ} دليل على خلودهم في النار،لأنه لو قال مأواكم النار، فإن هذا الوعيد جاء في حق العصاة في القران في عدد من الآيات، فكثير من أهل المعصية متوعدون بالنار لكنهم يدخلوها بعصياهم ويخرجون منها بإيمانهم ، أما إذ قال {هِيَ مَوْلَاكُمْ} فدل ذلك على خلودهم فيها وبقائهم الأبدي فيها ولا يكون ذلك لمن كان في قلبه مثقال حبة خردل من إيمان

[الذي إيمان لا يخلد في النار]

فإن الله سبحانه وتعالى عندما تنقطع شفاعة الشافعين يوم القيامة ، يقول لملائكته (انتهت شفاعة الشافعين وبقيت شفاعة أرحم الراحمين ، أخرجوا من النار من قال: لا إله إلا الله) ثم يمكث ما شاء الله أن يمكث ثم يقول (أخرجوا من كان في قلبه مثقال حبة خردل من إيمان) وفي رواية في الصحيح (مثقال حبة خردل من خير) فالخير يشمل هذا الإيمان وما معه مما يتقبله الله من أصحابه، ويمضي على ذلك مليارات السنين فيمحّص فيها الانسان لأن النار فيها مستوايات كثيرة ، ومن مستوياها مستويات التمحيص ، يدخلها الناس ليمحصوا ليذوب عنهم ما فيهم من الكفر والشرك والمعصية، ويعاقبون على أساس ذلك بحسب ما اقترفوه من الذنوب، حتى لو مضى على ذلك مليارات السنين، وهم يعذبون فيها، لابد أن يكون لهم يوم يخرجون منها بإيمانهم، لأن من كان في قلبه إيمان لا يمكن أن يخلد في النار، ويكفي من التمحيص حبسهم عن الجنة تلك المدة، فالإنسان إذا حبس عن مكان عادي ، مثلا إنسان مشارك في الدرس لكنه تأخر فأمرنا بإيقافه عند الباب، لمدة خمس عشرة دقائق أليس هذا عقوبة؟ لأنه سيفوته جزء من العلم والدرس ،فكيف إذا حبس عن جنات النعيم وعن رؤية الله جل جلاله فيها فهذه عقوبة عظيمة ، وبالأخص إذا مر عليها آلاف السنين ، أو مئات آلاف السنين أو ملايين السنين أو

مليارات السنين، كذلك في الدار الآخرة فليس الوقت فيها محددا ، والمدد فيها متطاولة تطاولا عجيبا

[مراتب الشهادة]

[المرتبة الأولى: العلم]

وهنا قال (أن تشهد أن لا إله إلا الله) والشهادة أربع مراتب

المرتبة الأولى منها علم الإنسان بما يشهد به، فلا يحل للإنسان أن يشهد بشيء يجهله ، فقد قال الله تعالى {وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ}[يوسف-71]، وقال تعالى {إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ}[الزخرف-86] فهذا الشرط واضح وهو {وهم يعلمون}

وقد أخرج البيهقي في السنن بإسناد فيه ضعيف عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال (أترى الشمس إذا طلعت؟) قال: نعم ،قال (على مثلها فاشهد أو دع) فالشهادة لا تكون إلا على الأمر الواضح الذي يقتنع به الانسان قناعته في رابعة النهار، ما سوى ذلك لابد أن يحتاط فيه الانسان لأن شهادة الزور من أكبر الكبائر، كما صح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال (ألا أخبركم بأكبر الكبائر –ثلاثا– قالوا بلى يا رسول الله قال: الشرك بالله وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق ، وقول الزور وكان متكئا فجلس وقال :ألا وقول الزور ، ألا وقول الزور) فمازال يكررها حتى قلنا ليته سكت ، فلذلك لابد أن نحذر جميعا من شهادة الزور ومن قول الزور، ونحن نرى كثيرا من الناس يتساهلون فيها حتى تكون عندهم أرق من الشعر، يشهدون شهادات تسجل بأسمائهم وبطاقات تعريفهم وهم يجهلون المشهود به تماما، وهذا النوع من اقتراف الكبائر الموبقة نسأل الله السلامة والعافية ، ومعنى الموبقة ، التي تغمس صاحبها في النار

وهنا هذا المقام الأول وهو العلم بمقتضى الشهادة أي بما يشهد به الانسان، لا يمكن أن يكون الانسان داخلا في الإسلام، وهو لا يعلمه فمن نطق بهذا اللفظ، وهو من غير الفاهمين له من غير الناطقين بالعربية، فلا يكون ذلك شهادة مقبولة عند الله ، ولو ذكرنا إجراء الأحكام في الظاهر عليه، لكنه شهد

بما لا يعلم لأنه لقّن لفظا فنطق به ، كما لو لقن أحدكم الآن الصينية أو من لغة ما لايالان ، أو من أية لغة لا تعلمونها ، فلهذا لا يكون الانسان شاهدا إلا إذا علم ما يشهد به ، هذا المقام الأول والمرتبة الأولى من مراتب الشهادة

[المرتبة الثالثة أداؤها]

المرتبة الثانية هي: نطقه بذلك وأداؤه لها لأن من علم وكتم لا يكون شاهدا {وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ}[البقرة-283] فمن علم بقلبه وأيقن أن لا اله إلا الله ولكنه لم يتلفظ بذلك فهو كاتم للشهادة ، قد أثم قلبه بهذا، ولم تنفعه شهادته العلمية في قلبه في الدنيا ، وإن كان قد يخفف بها عنه يوم القيامة أو يخرج بها من النار بسببها ، لكنها لا تنفعه في الحياة الدنيا

ولذلك لابد أن يكون هذا النطق لقصد أداء الشهادة فكثير من الناس مقتنع بمعناها ويتلفظ بها كثيرا ولكنه عند تلفظه بها لا ينوي أداء الشهادة، أيكم نوى عند النطق بشهادة أن لا اله إلا الله أنه يؤدي شهادة علمها ، فهو يشهد الله والملائكة والخلائق عليها، لابد من ذلك الأداء، والأداء فعل والفعل لا يحصل إلا بالنية كما سبق (إنما الأعمال بالنيات) لأنه من عمل الجوارح لا من عمل القلب ، فلذلك لابد في حال النطق بالشهادة ، ولو قلنا بوجوب ذلك مرة واحدة في العمر لابد أن ينوي الإنسان أداء الشهادة، لأنه قد استشهد على هذا الأمر فعلمه، فهو يؤديه على وفق ما علم كما شهد الله بذلك وملائكته وأولوا العلم، قال الله تعالى {شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ}[آل عمران-18] فالله تعالى أدى هذه الشهادة كما تشهدون بذلك والملائكة أدوا وقد شهد لهم بذلك، وأولو العلم الذين ارتضاهم الله وشهد لهم وزكاهم قد أدوا وشهد الله لهم بذلك، فإذن هذا المقام الثاني من مقامات الشهادة ، والمرتبة الثانية من مراتبها هي أداؤها

[مقتضيات لا إله إلا الله ، محمد رسول الله]

المرتبة الثالثة هي الالتزام بمقتضاها أي يلتزم الإنسان بما تقتضيه هذه الشهادة ، فأنت إذا شهدت أن فلانا مثلا أسلم فهذا يقتضي حقوقا عليك منها، حقوق المسلم على أخيه فشهادتك مقتضية منك لأداء ذلك الحق، وكذلك شهادة أن لا إله إلا الله وان محمدا رسول الله تقتضي مقتضيات إذا لم تؤدها، فقد بقيت تلك الشهادة حجة عليك لا لك، لأنك أيقنت بها بقلبك وتلفظت بها بلسانك مؤديا لها ثم بعد هذا لم تقم بحقها ولم تؤد مقتضاها فكانت حجة عليك لا لك، ولهذا لابد من معرفتنا لمقتضى شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وأدائنا لهذا المقتضى

وهذه المقتضيات سبع أربع منها مقتضيات شهادة أن لا إله إلا الله، وثلاثة مقتضيات شهادة أن محمدا رسول الله ، وهذا هو تعلم العقيدة الصحيح ، لأن كثيرا من الناس يظن أن العقيدة هي المسائل النظرية التي يسمعها الانسان ويسمع فيها قولين أو ثلاثة وحججا ومناقشات هذا غير صحيح ، العقيدة هي ما يصحبه العمل، كما نذكره الآن في شهادة أن لا اله إلا الله وأن محمدا رسول الله، وهذا الاعتقاد الذي يصحبه العمل وهو الذي يصحح عمل الانسان وحياته ومنهجه

[المقتضى الأول: إفراد الله بالعبادة]

فلذلك أول مقتضى من مقتضيات شهادة أن لا اله إلا الله :إفراده بالعبادة ، لأنك شهدت أن لا إله أي لا معبود بحق إلا هو وهذا يقتضي أن تفرده بالعبادة وأن لا تشرك معه غيره، في أي نوع من أنواع العبادة ، فإذا خالفت ذلك فقد أبطلت شهادتك ، إذا أشركت معه غيره في النذر، فنذرت لمخلوق أو ذبحت لمخلوق، أو قدمت طاعة المخلوق على الطاعة الخالق، أو نحو ذلك من أنواع العبادات فأشركت فيها مخلوقا ، فقد كذبت شهادتك ففعلك مكذب لقولك وهذا التناقض ، وقد قال الله تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ (2) كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ}[الصف–3] فهذا كبر مقتا، أي هو من أكبر الكبائر وأعظمها فصاحبه معرض للمقت الكبير، والبغض ، يبغضه الله تعالى

ويمقته، فإذن لابد من إفراد الله جل جلاله بالعبادة بجميع جزئياتها، ومنها تقديس التعظيم ، فذلك التقديس الذي تقتضيه الإلهية لا يمكن أن يصرف شيء منه للمخلوقين ، فأنت تقول في صلاتك (الله أكبر) وتقول ذلك في كل تصرفاتك فإذا كان غير الله أكبر عندك منه وأعظم أو مشاركا له أو مساويا أو مقاربا فإنك مكذب لنفسك في شهادة أن لا إله إلا الله ، فلهذا لابد من تحقيق هذا المقتضى فعليا ، في أفعالنا وحياتنا ومنهجنا كله ، لابد أن نحقق مقتضى شهادتنا أنه لا إله إلا الله، فلابد أن لا نصرف شيئا من العبادة إلا له جل جلاله

[المقتضى الثاني: عدم صرف شيء من التوكل والاستغاثة لغير الله]

المقتضى الثاني من مقتضيات شهادة أن لا اله إلا الله هو أن لا يصرف شيء من الدعاء ولا الاستغاثة ولا التوكل إلا له سبحانه وتعالى فإن من تمام الألوهية ، بل إن من حق الألوهية أن تعلّق به الحوائج وأن يقصد وجهه الكريم جل جلاله في الأمر كله وأن لا يُعتمد على غيره ، وأن لا يُتوكل عليه في أي جزئية من جزئيات الحياة، فمن يتوكل على غير الله أو يعتمد عليه في أي شيء ، فهو مكذب لشهادته أن لا إله إلا الله وقوله يعارض فعله

فإذن مقتضى شهادة أن لا اله إلا الله فيما يتعلق بالتوكل ،هو أن يتوكل عليه وحده، وأن لا تلتمس الحوائج ولا الأمور إلا منه جل جلاله وحده

فمن يعلق مالا يقدر عليه إلا الله من حوائجه بالناس أو بالمخلوقين، فقد كذب شهادته أن لا إله إلا الله لأنه اعترف وحده أنه الإله ، ومع ذلك يطلب منه الشفاء من المرض أو الحصول على الرزق ، أو الحصول على المال ، أو الحصول على الولد ،وهذه الأمور لا يقدر عليها المخلوق وقد قال الله تعالى {قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ}[الأعراف-188]

فلذلك لابد أن تصرف الحوائج كلها إلى الله عز وجل ولذلك قال الله تعالى {ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ (13) إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ}[فاطر-13-14] وهذه الآية فيصل في هذا الباب لأنها مسكتة في كل الاحتمالات {ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ} فما تسألونه لا يملكونه ، ومن لا يملك كيف يعطي ما لا يملك ، هو محتاج إليه {أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا}[الإسراء-57]

فلذلك قال {إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ} أول مقام من مقامات الاستجابة هو سماع المناداة ،فإذا كان الإنسان لا يسمعه فلا يتوقع منه الاستجابة أبدا، لأنه لم يسمع حاجتك ولم يعرف ماهي فكيف يعطيك حاجتك وهو لا يعلمها ،إذن واضح جدا هذا الانقطاع، لأنه قال {إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ}

ثم قال {وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ} لو قدر أنهم سمعوا وهذا منفي وقد سبق نفيه، لكن لو قدر أنه حصل فهم لا يستطيعون أداء ذلك الفعل بأي وجه من الوجوه {وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ} فقد صرح بأن هذا من الشرك الأكبر المخرج من الملة، وهذه القضية تلتبس على كثير من عواد المسلمين ، ولو فكروا وتذكروا أن الذين يدعون من دون الله، حتى لو كانوا من الأنبياء أو من الملائكة أو من الصالحين وأولياء الله لا يمكن أن يجمعوا بين المشرق والمغرب وبين قضاء حوائج الناس في وقت واحد إلا إذا كانوا آلهة من دون الله ،إذا كان الانسان يدعوه مثلا من هو في الهند ومن هو في باكستان ومن هو في أمريكا ومن هو في إفريقيا فيستجيب لهم جميعا، لماذا تعبد غيره ؟ فقد استحق الإلهية بذلك

فلهذا لابد من مراجعة هذه القضية وهي المقتضى الثاني من مقتضيات شهادة أن لا إله إلا الله وهو :أن لا يتوكل وأن لا يستغاث إلا بالله جل جلاله وحده وقد قال الله تعالى {أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ

وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ}[الزمر-36]وقال تعالى {وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}[الأنعام-17] وقال تعالى {وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ}[يونس-107] وقال {مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ}[فاطر-2] وقال تعالى {قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ}[الزمر-38]

ولذلك كانت وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم صريحة في هذا الباب فقال (فإذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله واعلم أن الأمة إذا اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء لن ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك ،وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك رفعت الأقلام وجفت الصحف)

[المقتضى الثالث: إن الحكم إلا الله]

المقتضى الثالث من مقتضيات شهادة أن لا إلا اله إلا الله هو أن لا يشرّع إلا الله ، فالإله هو الذي يحلّ وهو الذي يحرّم ومن دونه لا يملك تحليلا ولا تحريما ، لا يمكن أن يحل شيئا ولا أن يحرمه لأنه لا يعلم مآلات الأمور فالتحليل والتحريم إنما يكون لمن يعلم ما تؤول الأمور، الذي يعلم ما في غد هو الذي يستطيع أن يحل وأن يحرّم لعلمه ما يترتب على التحليل والتحريم والمصالح والمفاسد أما من لا يعلم ذلك ، فلا يمكن أن يقع منه تحليل ولا تحريم

ولهذا فإن قوانين أهل الارض التي يضعونها بناء على التخمينات والظنون وأن فيها مصالح آنية مؤقتة ، كل يوم يتراجعون عن بعضها فيقال: القانون الفلاني رقم كذا الصادر بتاريخ كذا المعدل بتاريخ كذا ، هذه التعديلات لماذا حصلت لأن مشرعها غير مطلع على ما في غد ولا يعلم الغيب ، والله تعالى يقول {أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ }[الملك-14] فلذلك أنكر الله سبحانه وتعالى على الذين

يتخذون شركاء يحلون لهم ويحرمون من دون الله ، فقال تعالى {أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ}[الشورى–21]، وقال تعالى {قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ}[يونس–59]

فهذا المقتضى وهو مقتضى الحاكمية إن الحكم كله لله ،{وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ}[الشورى–10]،{إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ}[يوسف–67]، {إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ}[يوسف–40]، فهذه الحاكمية مقتضى من مقتضيات شهادة أن لا إله إلا الله، وهي توحيد الحاكمية أن الحاكم المحل المحرم واحد وهو الله جل جلاله وحده ومن دونه لا يستطيع ذلك ولهذا أخرج البخاري في صحيحه عن أم سلمة رضي الله عنها ، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال (إنما أنا بشر مثلكم وأنتم تختصمون إلي ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأقضي له على نحو ما أسمع ، فمن قضيت له بشيء من مال أخيه فإنما أقتطع له جمرا من نار) فهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يتبرأ من أن يحل أو يحرم شيئا لم يأذن الله به

وكذلك أخرج أصحاب السنن من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال :غلا السعر بالمدينة على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فأتيناه فقلنا يا رسول الله سعّر لنا فقال (إن الله هو المسعّر الخالق الرازق وإني لأرجو أن ألقى الله غدا وليس احد منكم يطالبني بمظلمة في نفس أو مال) هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم المعصوم يقول(إن الله هو المسعّر الخالق الرازق وإني لأرجو أن ألقى الله غدا وليس احد منكم يطالبني بمظلمة في نفس أو مال)

لذلك لابد أيضا من ترسيخ هذا المقتضى من مقتضيات لا إله إلا الله في الناس أجمعين فكثير هم أولائك الذين يظنون أن من دون الله له الحق في التحليل أو في التحريم ، سواء كان ذلك فيما يتعلق بتفصيلات الأمور أو في كبرياتها ،فكثير من الناس يسمعون النص الصريح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الله أحل أمرا أو أمر به أو نهى عنه ، فيعدلون عنه ويأخذون بقول إنسان آخر من البشر غير معصوم فيناقضون شهادتهم أن لا اله إلا الله، ويعدلون إلى مثناة اكتتبوها من عند أنفسهم من غير ما أوحى الله

على رسوله صلى الله عليه وسلم وكذلك بعض الناس يفعل ذلك في الأصول فيضع القوانين التي تحل وتحرم مالم يأذن به الله ،وهذه القوانين سماها الله في كتابه دينا غير دينه فقد قال تعالى {كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ}[يوسف–76]، في دين الملك أي في قانونه فهذا القانون هو دين يأخذ به صاحبه

[المقتضى الرابع: محبته تعالى وإجلاله]

المقتضى الرابع من مقتضيات شهادة أن لا إله إلا الله، هو محبة الله وإجلاله فالله سبحانه وتعالى عندما تشهد أنه وحده هو الإله ، وأن من دونه لا يستحق ذلك ، ولا يتصف به فهذا مقتض منك أن تحبه حب الإلهية وقد قال الله تعالى {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ}[البقرة–165]، فهذه المحبة من مقتضيات شهادتك أنه هو وحده وأن لا إله سواه، وهذا يقتضي منا جميعا أن نراجع عواطفنا فيما يتعلق بمحبتنا لله فهذه المحبة تقتضي أنسا وتقتضي إخلاصا وتقتضي قصدا لوجهه الكريم، وتقتضي خشوعا وأدبا بين يديه، وتقتضي المهانة لحكمه جل جلاله والاستسلام لذلك، وتقتضي الانقياد والفرح لكل ما آت من عنده، {كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا} سواء منه ما فهمنا وما لم نفهم فنقول {كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ}[آل عمران–7]، فاستسلامنا له الناشئ عن المحبة هو من مقتضيات شهادتنا أنه هو وحده الإله ، وأنه لا إله سواه

إذن هذه أربع مقتضيات هي مقتضيات شهادة أن لا إله إلا الله

المقتضى الأول منها إفراده بالعبادة

والمقتضى الثاني إفراده بالتوكل والاستغاثة والدعاء

والمقتضى الثالث إفراده بالتشريع والأحكام

والمقتضى الرابع إفراده بالمحبة المحبة الإلهية

[مقتضيات شهادة أن محمدا رسول الله]

أما مقتضيات شهادة أن محمدا رسول الله ، فهذه الشهادة الفرق بينها وبين سابقتها أن شهادة أن لا إله إلا الله توحيد مطلق ،أي ليس في الكون إله سواه ، والشهادة الثانية فيها توحيد جزئي ، لا مطلق ،فالعالم فيه كثير من الرسل {اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ}[الحج–75] {اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ}[الأنعام–124] فالرسل كثير غير محمد صلى الله عليه وسلم، ولكن في هذه الأمة لا رسول سواه ، فهذا التوحيد الجزئي ، فهذه الشهادة التوحيد فيها جزئي لا كما في الشهادة الأولى فالتوحيد فيه جزئي

فإن شهادة أن محمدا رسول الله يسمى التوحيد الذي فيها توحيد الاتباع ، إلي لم يأتنا بشرع من عند الله إلا هو ، فاجتهادات الناس غير ملزمة لنا ، حتى لو كان أئمتنا وأعلامنا وعلماءنا حتى ولو كان أصحاب رسولنا صلى الله عليه وسلم ورضي الله عنهم أجمعين ، اجتهاداهم غير ملزمة

فالملزم لنا جميعا هو الوحي المترل على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، فما سواه غير ملزم ، وهذا مقتضى شهادتنا أنه رسول الله ، فهو إذن الرسول الوحيد في هذه الأمة فلا معصوم فيها سواه ،ولا مبلغ عن الله في هذه الأمة إلا هو وهذا يقتضي ثلاث مقتضيات

[المقتضى الأول: التصديق بكل ما أَخبرَ به]

المقتضى الأول: أن يصدَّق في كل ما أخبر به ، فالرسول لا يكذب لان من شروط الرسالة ومن الصفات الواجبة للرسول الصدق والأمانة والتبليغ، فمن كان كذابا لايمكن أن يكون رسول الله، فلهذا لابد أن نشهد أن كل ما قاله محمد صلى الله عليه وسلم وخرج من فيه فهو صدق ،سواء فهمناه أو لم نفهمه ، وجدنا ما يعارضه أو لم نجده ، لابد أن نؤمن بأنه صدق وانه هو الحق ، وأن نقدم ذلك

على أهوائنا وعقولنا ، فإذا حكمنا عقولنا فقلنا مثلا ، حديث الذبابة الذي فيه عن النبي صلى الله عليه وسلم إثبات أن في أحد جناحيها داء وفي الآخر دواء ، الطب العلمي اليوم لم يكتشفه حتى الآن وأردنا المناقشة في هذا الأمر ، هذا النوع من تحكيم الهوى في الشرع ، فالهوى أمر غير مجزوم به والشرع أمر مجزوم به، فالوحي صدق مقطوع به ، وأهواؤنا نحن وعقولنا وتجاربنا أمور ظنية قصارى أمرها وأعلى ما تصل إليه مجرد ظن

[تخلف النظريات العلمية مالم ترد في الوحي]

ولذلك فجميع النظريات العلمية ، وجميع الافتراضات العلمية، وجميع الحقائق العلمية، ما لم يرد في الوحي منها دائما يتخلف ، فأكبر الحقائق العلمية التجريبية في البشر، مثلا أن الإنسان إذا رمي في النار يحترق، أليس كذلك؟ وقد عرفنا جميعا أن إبراهيم عليه السلام ارمي في النار فخمدت ، قال الله {يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ}[الأنبياء-69]

وكذلك أن الإنسان إذا امتنع من الأكل والشرب لمدة طويلة ومضى عليه السنون لم يأكل ولم يشرب فإنه يموت وهذه حقيقة علمية ، لكن عرفنا أن عزيرا مضى عليه هذه الفترة الطويلة لم يأكل ولم يشرب فأماته الله مائة عام ثم بعثه، ومع ذلك لم يتسنه طعامه وهو يرى حماره ينشأ من جديد

[مسألة في التاريخ الشمسي والقمري]

وكذلك أصحاب الكهف قد مكثوا في كهفهم ثلاث مائة سنين وازدادوا تسعا وهذا كما يقول أهل الإعجاز العلمي هو الفرق بين التاريخ القمري والتاريخ الشمسي ، فالتاريخ الشمسي الفرق بينه وبين التاريخ القمري أن دورة القمر أسرع فلذلك كل مائة سنة بالتاريخ القمري تنقص ثلاث سنوات عن مقابلتها من التاريخ الشمسي، وبذلك فقد مكثوا ثلاث مائة سنين تامة بالتاريخ الشمسي وازدادوا

تسعا بالتاريخ القمري ، وهذا الفرق ، ففي كل ثلاث وثلاثين سنة تأتي فيها سنة واحدة في الفرق

فإذن يجب على من شهد أن محمدا رسول الله أن يصدق بكل ما أخبر به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإذا أنكر شيئا منه أو كذبه فقد ناقض شهادته أنه رسول الله، وهذا هو صميم الإيمان ، ولذلك فإن عبد الله ابن رواحة رضي الله عنه، كان يواقع جارية له فرأته زوجته ، فغضبت فأنكر أن يكون قد واقع جاريته ، فقالت: قد علمت أن الجنب لا يقرأ القران فإن كنت صادقا فاقرأ علي كتاب الله ، فقال:

شهدت شهادة لا ريب فيها *** بأن الله ليس له شريك

وأن محمدا عبد رسول *** إلى الثقلين أرسله المليك

قالت: صدقت الله وكذبت عيني ، فرضيت ، فهذه تربية رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه، أن ينطلقوا من هذا المنطلق

كما قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه عندما كانت قصة الإسراء والمعراج ولم يكن في مكة، فاستقبله المشركون فقالوا :أسمعت ما يقول صاحبك يزعم أنه أسري به من الليل إلى بيت المقدس ثم عرج به إلى السموات ثم أصبح بمكة ، فقال (إن كان قالها فقد صدق)

فإذن لابد لمن شهد أن محمدا رسول الله أن يصدقه في كل ما أخبر به

[المقتضى الثاني: أن يطاع في كل ما أمر]

المقتضى الثاني من مقتضيات شهادة أن محمدا رسول الله ، هو أن يطاع في كل ما أمر به فقد قال الله تعالى {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ}[النساء–64] وقال تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا

أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ}[النساء-59]، وقال تعالى {وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا}[الحشر-7] وقال تعالى {لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ}[النور-63] فإذن لابد من طاعته في كل ما أمر به

فكل من بلغه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بإسناد صحيح أو سمع من يثق به من أهل العلم يصححه وفهم معناه أي أمر، فلابد أن يبادر إليه وليس من حقه أن يقول :حتى أستشير فلانا أو حتى أعلم هل هذا مذهب فلان ،فهذا غير معقول، فلا يجوز معارضة قول رسول الله صلى الله عليه وسلم بقول أحد من الناس ولذلك قال ابن عباس لأهل مكة (والله ليوشكن الله أن يرجمكم بحجارة من السماء أقول قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فتقولون قال أبو بكر وعمر) فلا يمكن أن يعارض قول رسول الله صلى الله عليه وسلم بقول احد من الناس كائنا من كان

وقد قال خليل رحمه الله في جامعه الذي ذكر فيه الآداب قال (ولا يجوز أن تُعارض السنن برأي ولا قياس ، ولا يعرف عن شيوخ المدينة رواية إمام خبرين اختلفا وإنما يحدث بالذي عليه العمل) فلذلك لا يجوز أن تعارض السنن برأي ولا قياس ، والسنن ما ثبت عن رسول الله من الأقوال والأفعال والتقريرات ن لا يجوز أن تعارض برأي ولا بقياس ، ممن صدر ذلك الرأي أو القياس سواء صدر من أبي بكر أو عمر أو من عثمان أو من علي أو من دونهم ،لا يجوز أن يعارض قول رسول الله صلى الله عليه وسلم بقول أحد من الناس دونه فلذلك مقتضى شهادتك أنه رسول الله أن تأخذ ماجاءك به من عند الله وأن لا ترد شيئا منه

[أقوال الأئمة في متابعة رسول الله]

ولهذا قال الإمام مالك رحمه الله (ما منا أحد إلا راد ومردود عليه إلا صاحب هذا القبر) عليه الصلاة والسلام

وقال(كل الناس يؤخذ من قوله ويرد إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم)

وقال الشافعي رحمه الله (حيث صح الحديث فذلك مذهبي)

وقال أحمد رضي الله عنه (إذا وجدتم قولي يعارض شيئا من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فخذوا بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم واضربوا عرض الحائط) ، وكذلك روي مثل هذا عن أبي حنيفة رضي الله عنه وهذا ليس محل خلاف بين المسلمين، فجميع أئمتنا رضوان الله عليهم متفقون على هذا الأصل من أصول الإيمان ولا يخالف فيه أحد من أهل السنة

فكل أهل السنة مجمعون على أنه لايمكن أن يعدل عن قول رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى قول أحد سواه

[المقتضى الثالث: متابعته في العبادات]

المقتضى الثالث من مقتضيات شهادة أن محمدا رسول الله هو أن لا يُعبد الله إلا بما جاء به من عنده، فأنت تشهد أنه ليس في هذه الأمة رسول سواه، فإذن لا سبيل لهذه الأمة إلى معرفة رضوان الله وما أحل وما حرم، إلا ماكان عن طريق محمد صلى الله عليه وسلم ولذلك لا يمكن أن يعبد الله بشيء لم يات به رسول الله صلى الله عليه وسلم من عنده ، فالله تعالى لا يمكن أن يبلغ إليه عباده بنفع ولا بضر ، وقد قال في الحديث القدسي الصحيح (ياعبادي إنكم لا تبلغوا ضري فتضروني ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني) فلايمكن إذن أن تتقرب إليه إلا بشيء شرعه لك وبينه

المخلوق الذي تستطيع نفعه أو ضره ، أو أن ترفع عنه ضررا يمكن أن تقدم له خدمة لم يأمرك بها ،لأنك تستطيع أن تبلغه بنفع أو بضر، لكن الله تعالى لا يمكن أن تبلغه بنفع ولا بضر، فلا يمكن أن تتقرب إليه إلا بشيء شرعه لك ،ولهذا فكل من ابتدع في دين الله ، أية طريقة يتعبد الله بها ،لم يأت بها رسول الله صلى الله عليه وسلم من عند الله ، فهي مردودة عليه، فقد صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه

قال (من أحدث في أمرنا هذا ماليس منه فهو رد) وصح عنه أنه قال (من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد) وقال (وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل بدعة ضلالة) وفي الحديث الآخر (كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار)

فلذلك لابد من الحذر مما أحدثه المحدثون أيا كان ذلك الإحداث ، أن تقتصر على ماجاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم من عند الله فهو كاف ولا يطلب منك المزيد عليه وقد قال العلامة بابا ولد شيخ سدية رحمة الله عليهما

آمن أخي واستقم *** ونهج أحمد التزم

واجتنب السبل لا *** تغررك أضغاث الحلُم

لا خير في دين لدى *** خير القرون قد عُدم

أحدثه من لم يجئ *** قطع بأنه عصم

من بعدما قد أنزلت *** اليوم أكملت لكم

وبعدما صح لدى *** جمع على غدير خم

ادع إلى سبيله *** وخص في الناس وعُم

وقل إذا ما أعرضوا *** عليكمُ أنفسكم

وقال أيضا

كن للإله ناصرا *** وأنكر المناكرا

وكن مع الحق الذي *** يرضاه منك دائرا

ولا تعد نافعا *** سواءه أو ضائرا

واسلك سبيل المصطفى *** ومت عليه سائرا

فما كفى أولنا *** أليس يكفي الآخرا

وكن لقوم أحدثوا *** في أمره مهاجرا

قد زعموا مزاعما *** وسودوا دفاترا

وأورثت أكابرٌ *** بدعتها أصاغرا

واحتنكوا أهل الفلا *** واحتنكوا الحواضرا

وإن دعا مجادل *** في أمرهم إلى مرا

فلا تماري فيهمُ *** إلا مراءً ظاهرا

فلذلك لابد من الاقتصار على ماجاء به محمد صلى الله عليه وسلم وعدم تجاوزه ، وقد صح عن ابن مسعود رضي الله عنه (كل عبادة لم يتعبدها أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم فلا تتعبدوها فإن الأول لم يترك للآخر مقالا)

ولذلك قال مالك رحمه الله عندما عرض عليه بعض البدع التي أراد بها قوم المبالغة في التعبد لله قال (لقد قال الله تعالى {اليوم أكملت لكم دينكم} فمالم يكن يومئذ دينا لا يكون اليوم دينا) وقد روي عنه وروي كذلك عن بعض من سبقه أنهم كانوا يقولون (إن آخر هذه الأمة لا يصلح إلا بما صلح به أولها) والله سبحانه وتعالى أحالنا إلى ماكانوا عليه كما سبق في قوله {فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا }[البقرة- 137] فلذلك لابد أن نقتصر جميعا في كل ما يتعبد الله به وفي كل العقائد على ماجاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم

[الاعتقادات والعبادات والعادات]

ولدينا في الدين ثلاثة أبواب

الباب الأول باب العقيدة فهذا الباب مقصور على ماجاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم من عند الله لا يمكن أن يخاطب إنسان أن يعتقد شيئا لم يأت به محمد صلى الله عليه وسلم من عند الله أبدا ، فالعقيدة مقصورة على النص، ماجاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذنا به وما لم يأت لم نخاطب به ولن نسأل عنه في قبورنا ولا نسال عنه عند العرض عند ربنا، ماجاءنا به رسول الله صلى الله عليه وسلم هو المنهج الصحيح

الباب الثاني باب التعبدات ، أي القرب التي يتقرب بها إلى الله ويلتمس بها ثوابه، فهذه أيضا مقصورة على الوحي ، على ماجاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم من عند الله ، لأننا لا يمكن أن نتقرب إليه بشيء لم يأمرنا به لأننا لا ننفعه ولا نضره

الباب الثالث باب العادات والمعاملات ومصالح الناس فهذا توسع فيه الشارع لأمور الاجتهاد، فيه ضوابط جاء بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ومصالح ،وأمور نصية هذه لا تُتعدى ، وما سكت عنه فالباب فيه واسع والأمر فيه ميسور، فإذن البدع لا تدخل العادات والمعاملات ، مثل الآلات ، اللباس ، هذا اللباس لم يكن النبي صلى الله عليه وسلم يلبسه، ونحن نلبسه ، هذا الجهاز لم يكن يستعمله ونحن نستعمله، هذا النوع من المباني ، هذه الأنوار الكهربائية هذه المراوح ، هذه الأمور لم يكن النبي صلى الله عليه وسلم يستعملها، ونحن نستعملها لأنها من قبيل العادات والمعاملات والآلات ، فلا تدخل في العبادات ولا في العقائد، فلذلك لا يدخلها الابتداع ،إنما المرجع فيها إلى المصالح، كالسيارات والساعات وغير ذلك من الآلات

أما ما يتعلق بالعقائد أو بالعبادات فلا يمكن أن يتجاوز ماجاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم من عند الله في ذلك

إذن هذه ثلاث مقتضيات تقتضيها شهادة أن محمدا رسول الله

المقتضى الأول أن يصدق في كل ماجاء به في كل ما أخبر به

والمقتضى الثاني أن يطا ع في كل ما أمر به

والمقتضى الثالث أن لا يعبد الله إلا بما جاء به من عنده

وبهذا تتم المقتضيات فإذن المرتبة الثالثة من مراتب الشهادة هي الالتزام بمقتضاها، فأنت إذا شهدت أن لا إله الا الله، فقد أقررت على نفسك ووقعت اتفاقا مع ربك أنك تلتزم ما تقتضيه هتان الشهادتان من المقتضيات

[المقام الرابع: الدعوة إلى مقتضاها]

المقام الرابع وهو الأخير من مقامات الشهادة ، هو السعي لالتزام الغير بمقتضاها ، أنت شهدت أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله وعملت بذلك في خاصة نفسك ، فأصبحت مؤمنا ملتزما، لكن لا يكفي هذا ، شهادتك أن لا اله الا الله قناعة ن وكل قناعة لابد أن يدعو إليها صاحبها ، وان يسعى لانتشارها وانتصارها بين الناس ،وإذا لم يفعل فمعنى لك أنه غير مقتنع بها، من انتسب إلى حزب من الأحزاب واقتنع بفكرته، أو أيديولوجيةٍ من الأيديولوجيات أليس سيسعى لنصرها ونشرها ويدعو لها، فأنت الآن اقتنعت تمام الاقتنا ع بهذه الشهادة، فلذلك لابد أن تسعى للالتزام الغير بها ، فهذا من مقتضياتها ، ومن مراتبها

وهذه المرتبة تقتضي أن يكون كل الشاهدين أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله داعين إلى ما أمر به الرسول صلى الله عليه وسلم {قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ}[يوسف–108]، فلذلك لايمكن أن يقول الانسان المسلم الذي يشهد أن لا إله الا الله وأن محمدا رسول الله أنا مسلم لكنني لست داعيا، لا أدعو إلى سبيل الله، هذا مستحيل ،

تناقض سافر، بمجرد شهادتك أن لا إله الا الله وأن محمدا رسول الله لزمك أن تدعو لهذه الشهادة وأن تريد نشرها ونصرها وكثرة المقتنعين بها ، وأن تريد من المقتنعين بها أيضا الالتزام بمقتضاها، أن تعين الناس أيضا على الالتزام بمقتضاها ، فهذا تقتضيه منك هذه الشهادة ، وهو مرتبة من مراتب شهادتك أن الا اله الا الله وأن محمدا رسول الله

وبهذا نكون قد أتينا على ما بعض ما يتعلق بالركن الأول من أركان الإسلام وهو شهادة أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله

فأقول قولي هذا واستغفر الله لي ولكم